تقدّم الآداب ترجمةً قام بها رئيسُ التحرير لمقالين كُتبا ولمقابلة أجريتْ عَقِبَ التفجيرات الأخيرة (١١ أيلول / سبتمبر) التي طالت مركز التجارة العالميّ في نيويورك ومبنى البنتاغون في واشنطن. ويَتْبعها محاضرةٌ ألقاها المفكّرُ الباكستانيُّ الراحل إقبال أحمد قبل ثلاث سنوات تقريباً، وتتضمّن ما يُشْبه النبوءة بحدوث ما حصل في أيلول مؤخّراً. والتعبير الإنكليزيّ «عاد الدّجاج إلى قُنّه» (الذي استخدمه نورمان فنكلستين وإقبال أحمد هنا) يَعْني بالعربيّة أنّ السكّين ارتدّت إلى صَدْر حاملها، دلالةً على أنّ «الإرهاب» الذي غذّته الولاياتُ المتحدة في أفغانستان في مواجهة «إمبراطوريّة الشرّ» السوفياتيّة عادَ فطَعَنها في صميمها. تجدر الإشارة إلى أنّ هذا العدد يَصْدر والعالَمُ على شفير حربٍ قد تشنُّها الولاياتُ المتحدة على أفغانستان وربّما على دول أخرى باسم «مكافحة الإرهاب.»

تفجيرات نيويورك وواشنطن: هل عاد الدجاج إلى قُنّه؟

هوامش على دفتر الانفجارات الأخيرة*

نورمان فنكلستين

تستثير أحداثُ الثلاثاء في ١١ أيلول (سبتمبر) على الفور مشاعرَ الصدمةِ والرعبِ والخوف. ولكنّها لم تَكُنْ كارثةً طبيعيّةً، إعصارًا أو انفجارًا بركانياً ـ وكلاهما يستثير المشاعرَ ذاتَها بالطبع. بل إنّ كارثة الثلاثاء كانت ذاتَ دلالاتٍ سياسيّةٍ أيضًا. ولكي أشْرح السببَ أودّ أولاً أن أقارن ما حَصَل بحادثةٍ أخرى.

لقد كان اغتيالُ كنيدي بالنسبة إلى جيلي ما سيكونه الثلاثاءُ الفائتُ بالنسبة إليكم من الآن فصاعدًا. بل الحقّ أنّ اغتيال كنيدي افتَقَرَ إلى الدلالات السياسيّة؛ فقد كان في النهاية أقربَ إلى أن يكون مأساةً عائليّة. والمقارنة التي أقترحها إنّما هي مع حادثةٍ ذاتِ صلةٍ بذلك الاغتيال. فبعد أن قُتِل كنيدي استَحْضَرَ الزعيمُ الأفريقيُّ الأميركيُّ مالكوم أكس تعبيرًا يقول «الدجاجُ يعود إلى قُنّه.» وهذه الاستعارة أثارت غضبًا شعبياً عارمًا وأدّت إلى طرده من تنظيم «أمّة الإسلام.»[1] وما عناه مالكوم أكس، بالطبع، هو أنّ العنف الذي تمارسه الولاياتُ المتحدة بشكلٍ عشوائيٍّ على الآخرين قد ارتدّ عليها الآن.

ليس ثمّة في هذه القاعة مَن هو أكثرُ منّي ألمًا وكربًا نتيجةً للجريمة المروّعة والضخمة التي ارتُكبتْ ذلك الثلاثاء. فعددٌ كبير من تلاميذي السابقين كانوا يَعْملون في مركز التجارة العالميّ، ويُرجَّح أن يكونوا اليومَ موتى تحت الأنقاض. وهناك أصدقاء لي لم أتمكّن من الاتّصال بهم، وكذلك الأمرُ بالنسبة إلى جيراني في بنايتي. وكان مركزُ التجارة العالميّ مبنًى طويلاً جدّاً، ولو قام النيويوركيُّ بجردة بالنيويوركيّين الذين ارتبطوا يومًا ما بهذا المركز لكانت هذه الجردةُ بالغةَ الطول. ولكنْ بعيدًا عن الغضب المبرَّر والأسفِ المبرَّر أرى أنّنا مسؤولون عن التفكير في ما يتعدّى هذا الحدث لكي نَستجلي مغزاه، ومسؤولون أيضًا عن بذلِ أقصى جهدنا لمنع تكرارِ هذا الرعب.

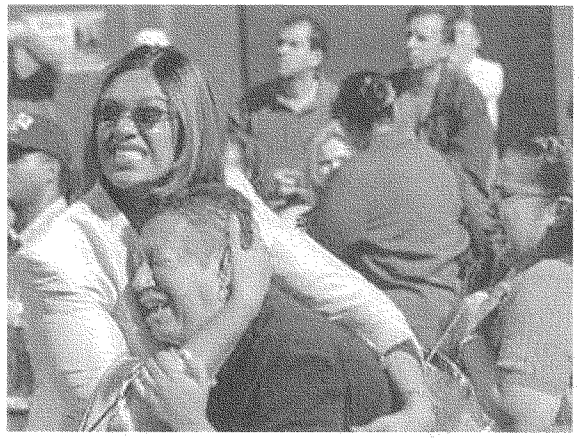

نحن مسؤولون عن بذل أقصى جهدنا لمنع تكرار هذا الرعب

كثيرٌ من الحاضرين في هذه القاعة لن يُحبّوا ما أنا على وَشْكِ قوله. ولكنّ المخاطر المُحْدِقة أعظمُ من أن نَقْتصر على الأكاذيب. فالآن، أكثرَ من أيّ وقت مضى، علينا أن نقولَ الحقيقة (كما نَفْهمها نحن) بغضّ النظر عن تَبِعاتِ ذلك.

* ـ هوامش أدلى بها هذا المثقفُ التقدُّميّ الأميركيّ بعد يومَيْن فقط من وقوع أحداث ١١ أيلول (سبتمبر)، وذلك في جامعة ديبول في شيكاغو. وفنكلستين صاحبُ كتب عدّة أشهرها **صناعة الهولوكوست** الذي صدر منذ أشهر عن دار الآداب. وقد أعادَ صياغة «هوامشه» لتكون مقالةً مخصَّصةً لـ الآداب. فله الشكر.

١ ـ للمزيد من التفاصيل عن هذه المنظمة الأفريقيّة ـ الأميركيّة التي أسَّسها إلايجه محمّد، راجع الآداب ١/٢، ٢٠٠٠. (المترجم)

الجوابُ السهلُ عمّا حدث يومَ الثلاثاء هو أن نَكْتفي بهزّ رؤوسنا غيرَ مصدِّقين ما ارتكبه أولئك المجانين ـ المعتوهون ـ المتعصِّبون ـ الأصوليُّون الشرقأوسطيُّون ـ العرب ـ المسلمون ـ إلى ما هنالك من نعوت، وأن نَخْتزلهم بوصفهم جِنْسًا مختلفًا عن جنسنا نحن، بل أن نقول إنَّهم أدنى من جنسنا بعدّة درجات. ولكنَّ ردّاً أصعبَ إنَّما يتمثَّل في أن نَعْترف **بالإنسان** داخل هؤلاء الناس، وأن نُقِرَّ معاناتَهم والمهانةَ التي يقاسونها. غير أنَّ الردّ الأقسى هو أن نَنْظر نظرةً فاحصةً إلى أنفسنا، وإلى مسؤوليّتنا عن عذابهم.

في حزيران الماضي زُرتُ، كما هي عادتي كلَّ عام تقريبًا، أصدقاء فلسطينيِّين في الضفّة الغربيَّة وغزّة المحتلّتيْن من قِبل إسرائيل. وللمرّة الأولى منذ عقدٍ كاملٍ من زياراتي إلى هناك ألاحِظ تغيُّرًا نوعيّاً في المشاعر الشَّعبيَّة. فأصدقائي الفلسطينيُّون، باستثناءاتٍ قليلة، يَدْعمون الآن العملياتِ الإرهابيَّةَ ضدّ المدنيِّين الإسرائيليِّين (كنتُ قد وصلتُ بُعَيْدَ انفجار الديسكو في تل أبيب). وإذْ لم يَسَعْني أن أوافقَ على تغيير موقفهم هذا، كان في وسعي أن أَفْهم ـ دون أن أَدْعم ـ استهدافَ المدنيِّين، وحذَّرتُ أيضًا أنَّ هذا سيكون كارثةً من الناحية العمليَّة. ذلك لأنَّ عمليَّات الإرهاب الفلسطينيَّة ستَسْتدعي في النهاية ضربةً إسرائيليَّةً انتقاميَّةً ساحقة، وستزول فلسطين. فماذا كان ردُّ فعل أصدقائي؟ بعد عقودٍ من المعاناة التي لا يُمْكن تحمُّلُها، لم يعد هؤلاء الفلسطينيُّون يَأْبهون للأمر. لم يُخِفْهُم تحذيري. أحدُ الفلسطينيِّين من رفح كرَّر مرّةً بعد مرة: «أن نكون أو لا نكون.» واستَحْضَرَ فلسطينيٌّ آخر قصةَ شمشون والهيكل. لقد كان الفلسطينيُّون على استعدادٍ للموت، وعلى استعدادٍ لأن يَصْطحبوا معهم إلى الموت أكبرَ عدد يستطيعون اصطحابَه من قامعيهم الإسرائيليِّين. أوَيَصْعبُ تفهُّمُ موقفهم؟

كانت أمِّي من بين الناجين من غيتو وارسو ومن معسكر مايدنك. وقد سألتُها ذاتَ مرّة رأيَها حين كانت الأخبارُ تتسرَّب أثناء الحرب العالميَّة الثانية، ومفادُها أنَّ الروس كانوا يَقْصفون المدنَ الألمانيَّةَ خَبْطَ عشواء مُلحِقين الموتَ بأعداد هائلة من المدنيِّين. فأجابتْني دون تردُّد: «كنتُ أريد أن يموتَ الألمان. كنتُ أعلم أنَّني لن أعيش، فأردتُ أن يموتوا هم أيضًا. كنّا نهلِّل للرُّوس. كنّا نُريدهم أن يدمِّروا كلَّ ما هو ألمانيّ، أيّاً كان. كنّا نتمنّى لهم الموتَ كلَّ لحظةٍ في اليوم، لأنَّنا كنّا نواجهُ الموتَ كلَّ لحظةٍ في اليوم.»

إنَّ حكومة الولايات المتحدة، وهي حكومةٌ نتحمَّل كلُّنا مسؤوليَّةَ أعمالها، تسبِّب البؤسَ والرعبَ، مباشرةً وبصورةٍ غير مباشرة، لأعدادٍ ضخمةٍ من البشر. والبؤسُ والرعبُ، سواء أكانا ماثلَيْن في التدمير المنهجيّ للبنان عام ١٩٨٢ أم في العراق عام ١٩٩١ أم في صربيا مؤخّرًا، يتّسمان بالنسبة إلى معظمنا بواقعيَّةِ ألعابِ الفيديو. ففي هذه البلدان كان ثمّة قتلٌ جماعيٌّ دونما تبعاتٍ تصيب الأميركان. لقد كان الأمرُ مسلِّيًا لنا إلى حدٍّ كبير. ولكنَّنا الآن نَحْصد الزوبعةَ المروِّعةَ التي زَرَعْناها.

منذ نهاية الحرب العالميَّة الثانية لم تواجِه الولاياتُ المتحدةُ أيَّ أعداء حقيقيِّين، أو هي ـ في كل الأحوال ـ تحمَّلت التهديداتِ التي تصيب «مصالحَها القوميَّة.» وكان الاتِّحادُ السوفياتيّ قوَّةً محافِظةً، بل كان أساسًا ـ كما يتَّضح يومًا بعد يوم وبشكلٍ مثيرٍ للإحباط ـ قوَّةً موازنةً للولايات المتحدة في الشؤون الدوليَّة (لن يمرّ وقت طويل حتى نتطلَّعَ بحنين إلى «المؤامرة الشيوعيَّة العالميَّة!»). في جنوب شرق آسيا وفي أميركا الوسطى حاربتْ أميركا معاركَ مباشرةً، وعَبْر حلفائها، ولكنْ لم تَكُنْ ثمّة مصالحُ أميركيَّةٌ حيويَّةٌ في دائرة الخطر. ومنذ سقوط الاتِّحاد السوفياتيّ بات أعداءُ الولايات المتحدة الرسميُّون (كالعراق وليبيا وإرهابيِّي المخدِّرات إلخ...) بعابعَ وتلفيقاتٍ استحضرناها نحن بأنفسنا لنبرِّرَ ـ من ضِمْنِ أمورٍ أخرى ـ ميزانيَّتَنا العسكريَّةَ المتصاعدةَ أبدًا.

لقد نَظرت الولاياتُ المتحدةُ بارتياح وإعجاب إلى منزلتها الجديدة كقوَّةٍ عظمى لا شريكَ لها. وراحت تتصرَّف بغرورٍ وتيهٍ يأْخذان بالأنفاس: فرَفَضَتْ مؤخَّرًا محكمةً دوليَّةً لجرائم الحرب، ورفضت اتفاقًا على وقف الحرب الجرثوميَّة، وانسحبتْ من معاهدة كيوتو ومن مؤتمر دوربان، وسعت إلى تفكيك معاهدة الصواريخ الباليستيّة المضادّة، وهلمّجرّاً ـ واللائحةُ طويلة. والافتراض حتى الآن هو أنْ لا ثمنَ يَنْبغي للولايات المتحدة أن تَدْفَعَه مقابلَ كونها قوَّةً عظمى لا شريكَ لها: بل إنَّ بإمكانها أن تَفْعل ما تشاء، وبحصانةٍ تامَّةٍ. ولكنْ يَبْدو أنَّ على واشنطن أن تعيد الآن التفكيرَ في هذا الافتراض.

غير أنَّ الانخراط في التفكير الجدي والصَعْب يجب ألا يَقْتصر على قادَتِنا في واشنطن، وإنَّما على كلِّ واحدٍ منّا في هذه القاعة أن يفكِّر مليّاً في حياتنا. فالحقّ أنَّ معظمنا تصرَّفَ وكأن لا عالمَ موجودًا خارج الولايات المتحدة، ولسانُ حالنا أنَّه إذا كان كلُّ الآخرين يريدون أن يكونوا مثلَنا فلا يَنْبغي أن نَعْرف أو أن نهتمَّ ببلدان العالم من حولنا إلاَّ لتمضيةِ عُطْلةٍ محتملةٍ فيها. لم نُبالِ بقراءة الجرائد. وبالتأكيد لم نضيِّعْ وقتَنا في تعلُّم لغات أجنبيَّة، ولسانُ حالنا يقول: ألا يتحدَّث كلُّ إنسان في العالم اللُّغةَ الإنكليزيَّة؟! (وحدَها الدولةُ المُسَمَّمةُ بداء الغرور المفْرِط تستطيع أن تُنْتِجَ حركةً جاهلةً عنيدةً لا تُسمَّى «الإنكليزيَّة أوَّلاً،» على ما في ذلك من جهل وعناد، بل «الإنجليزيَّة فقط!»). ما لدينا من المشاكل كان أعظمَ من أن يَدْفعنا إلى الاهتمام بمشاكلهم «هُمْ.» ولكنْ، يومَ الثلاثاء، انهارَ العالَمُ على رؤوسنا. وعلينا الآن أن نهتمّ بمشاكل «هم» وإلاَّ... بل إنَّ علينا ألاَّ نقوم بذلك وكأنَّه فِعْلٌ خيريّ، وإنَّما بوصفه ضرورةً لبقائنا على قيد الحياة.

إنَّه ليبدو لي حقّاً أنَّنا نَحْتاج إلى أن نَسْأل أصعبَ الأسئلة عن أنفسنا. أليس ثمّة ظلمٌ أساسيٌّ في وجود حفنةٍ قليلةٍ من الناس، منتفخين بالمال حتى حافة الانفجار، وفي مُقابلهم قسمٌ عظيمٌ من

البشريّة يعيش عيشةَ الكلاب؟ وواقع الأمر أنّ هذا التشبيه ليس صحيحًا تمامًا، لأنّ الكلاب في الولايات المتحدة تَحْظى عادةً باهتمامٍ ورعايةٍ يَفُوقان ما حَظِي به نصفُ مليون طفل عراقيّ (أو نحو ذلك) ماتوا نتيجةً للعقوبات الأميركيّة!

ليس ثمّة من جوابٍ سهلٍ عمّا جرى يومَ الثلاثاء. حين فُجِّر أوّلُ جهازٍ نوويّ كان آينشتاين هو مَنْ قال ـ إنْ لم أكن مخطئًا ـ إنّ كلّ شيء قد تغيَّر إلاّ طريقة تفكير الإنسان. أخشى أن يكون هذا هو الخطرَ الأعظمَ الذي يواجههنا اليوم. إنّ ردّ واشنطن على ما حدَثَ سيكون على الأرجح المزيدَ من أفعالها السابقة: ضرباتٍ انتقاميّةً ذاتَ حجمٍ بالغِ التدمير؛ وإجراءاتٍ أمنيّةً جديدةً على المستوى المحليّ تَقْرُض جزءًا أكبرَ من حريّاتنا الأساسيّة. وحتى لو وَضَعْنا جانبًا اهتماماتنا الأخلاقيّةَ والمدنيّةَ المناديةَ بالحريّة المطلقة، أثمّة في هذه القاعة مَنْ يصدِّق حقًّا أنّ كلّ تلك الضربات والإجراءات ستُوقِف الهجماتِ الإرهابيّة؟

إنّ الأمل الوحيد المتبقّي لدينا، بعد أهوال الثلاثاء الماضي، هو أن تتغيَّر طريقةُ تفكيرنا أيضًا.

شيكاغو

لنَكُنْ واضحين تمامًا. نحن لا نشاطِرُ رأيَ مادلين أولبرايت [وزيرة الخارجيّة الأميركيّة السابقة] حين سُئلتْ ما إذا كان استمرارُ الحصار على العراق يستحقّ أن يموتَ في سبيله نصفُ مليون عراقيّ فأجابت: «إنّه لخيارٌ قاسٍ جدّاً، ولكنّنا نَعْتقد أنّ الأمر يستحقّ ذلك.» فنحن نرى أنّ قتلَ مدنيّين أبرياء ليس مقبولاً في أيّ وقتٍ من الأوقات. ولكنّ ذلك لا يَعْني ألاّ يكون علينا أن نحاول أن نَفْهم المغزى الضمنيّ لذلك الهجوم الذي لا يُصدَّق.

لقد لاحظ داعيةُ السلام الأميركيّ أ.ج. ماست ذات يوم أنّ الرابح في كلّ حرب هو الذي يَطْرح المشكلة: فالمُنْتصِر قد تَعَلَّمَ أنّ العنفَ يَنْجح في تحقيق أهدافه. ويبيِّن تاريخُ ما بعد الحرب العالميّة الثانية بأكمله شدّةَ ارتباط هذه الملاحظة بموضوعنا. ففي الولايات المتحدة أُعيدت تسميةُ «وزارة الحرب» وزارةً «للدفاع،» تحديدًا حيث لم يكن ثمة خطرٌ مباشرٌ يهدِّد البلادَ. وشنَّت الحكومةُ تلو الحكومة حملاتِ تدخُّلٍ عسكريّ وزعزعةٍ سياسيّةٍ تحت غطاء «احتواء الشيوعيّة» طالت حكوماتٍ ذاتَ توجُّهاتٍ وطنيّةٍ معتدلة أمثال حكومةِ غولارت في البرازيل أو حكومةِ مصدّق في إيران أو حكومةِ آربنز في غواتيمالا. وحصرًا للموضوع بالزمن الحاضر، دعونا نتأمّلْ بضعَ أسئلة قلّما تُطرح في ما يخصّ السياسةَ الغربيّة، ولاسيّما الأميركيّة.

ـ بروتوكول كيوتو: اعتراضُ الولايات المتحدة الرئيسيّ عليه لا يَسْتند إلى أرضيّة علْميّة، بل حَسْبُه أنّه «سَيِّئٌ لاقتصادنا.» فماذا تُراه يَسْتَنْتج مِنْ ردّة الفعل هذه أناسٌ يَعْملون ١٢ ساعةً في اليوم لقاء أجرٍ هو أجرُ العبيد؟!

ـ مؤتمر دوربان: الغرب يَرْفض أدنى تفكير في تقديم تعويضات لضحايا العبوديّة والاستعمار. ولكنْ أليْس واضحًا أنّ دولة إسرائيل تمثِّل شكلاً من أشكال التعويض الغربيّ عن حملات الاضطهاد المعادية للساميّة، سوى أنّ مَنْ يَدْفع ثمنَ الجرائم التي ارتكبها الأوروبيُّون إنّما هم الفلسطينيُّون العرب؟ أوَلَيس بيِّنًا أنّ إزاحةَ المسؤوليّة هنا لا بدّ أن يَعُدّها ضحايا الاستعمار شكلاً من أشكال العنصريّة؟

ـ مقدونيا: هذا بلد دَفَعه الغربُ إلى الاستقلال من أجل إضعاف صربيا، وحكومتُه ما فتئتْ تَتَّبع الأوامرَ الغربيّةَ بإخلاص. ونتيجةً لذلك تعرَّض لهجماتٍ نفّذها إرهابيُّون سلّحهم الناتو وجاءوا من أراضٍ تَخْضع لسيطرة هذا الحلف. فكيف ستَنْظر الشعوبُ الأورثوذكسيّةُ السلافيّةُ إلى هذا الأمر، وبخاصةٍ بعد تهجير السكّان الصرب من كوسوفو ـ على مرأًى من الناتو ـ وبعد اجتثاثِ قسمٍ كبيرٍ من إرثهم الثقافيّ؟

ـ أفغانستان: لقد تُنوسي بسرعةٍ أنّ أسامة بن لادن كان قد دُرِّب وسُلِّح من طرف الأميركان، الذين يَجْهرون بالاعتراف بأنّهم كانوا يَسْتخدمون أفغانستان لزعزعة الاتّحاد السوفياتيّ حتى قبل غزو

نهاية «نهاية التاريخ»*

جان بريكمون

كل شيء كان يسير على ما يرام. فصربيا، الساجدةُ على ركبتيْها، أرْسلتْ للتوّ ميلوسوفيتش إلى محكمة الجزاء الدوليّة لقاءَ حفنةٍ من الدولارات (اتّضحَ أنّ أكثرَها مخصَّصٌ لدفع الديون التي تعود إلى أيّام حُكْم المارشال تيتو). حلفُ الناتو يتوسَّع شرقًا، باتّجاه روسيا التي لا حول لها ولا قوّة. صدّام حسين يَسْهل قصفُه متى شاء المرءُ ذلك. مقدونيا اضطُرّتْ، بعد أن غَزَتْها كوسوفو، إلى قبول مهزلةِ نَزْع سلاح الكوسوفيِّين على يدِ مَنْ كان قد زَوَّدهم به أصلاً. المناطق الفلسطينيّة المحتلّة تحت سيطرةٍ إسرائيليّةٍ شديدة، فيما تَغْتالُ قادَتَهم قنابلُ «ذكيّة.» مالِكُو الأسهم ما فَتِئوا طوال الأعوام السابقة القليلة يسجِّلون أرباحًا قياسيّة. اليسار السياسيّ انقرض، وكلُّ الأحزاب السياسيّة تسابقتْ نحو الليبراليّة الجديدة ونزعةِ التدخُّل «الإنسانيّ.» وبكلمة، على ما عَبَّرَ بعضُ المعلِّقين، كنّا نَنْعم بالسلام.

وفجأةً وقعت الصدمةُ والدهشةُ والرعب: فأعظمُ قوّة عَبْر كلّ حقب التاريخ، والإمبراطوريّةُ الكونيّةُ الوحيدةُ بحقّ، تُضْرَبُ في صميمها، في مركزِ ثرائها وقوّتها. وأمّا شبكةُ التجسُّس الإلكترونيّة الفريدة القهّارة، وأمّا التدابيرُ الأمنيّةُ التي لا توازيها أيُّ تدابير، وأمّا ميزانيّةُ الدفاع المذْهلة ـ فكلُّها لم تَنْفع في تجنُّب الكارثة.

* ـ مقال نُشر في موقع «زي نت.» وبريكمون أستاذ الفيزياء النظريّة في جامعة لوڤان في بلجيكا.